الشعـــــر
في ملتقيـــات الفكـــر الإسلامي

د. عبد القادر هنّي

لم يكن الأدب الحق في يوم من الأيام غريباً عن حركية الحياة، معزولاً عن روح الأمة ووجدانها، بل كان دوماً خير معبر عن آلامها وأحلامها في لحظات انتصارها وانكسارها، يصوّر سعيها الحثيث لبناء نفسها وينير حيالها السبل الموصلة إلى غايتها، ويحاول جاهداً أن يجنّبها شرَّ الانحراف عن جادة الرشد والحق، ويُحَفزها للإسهام الجاد بنصيب وافرٍ في تأدية الأمانة التي أُوكل الله عزَّ وجلَّ أمرها إلى الإنسان دون سواه من الكائنات في هذا الوجود. بل إن الأديب الذي يُقَدِّرُ المسؤولية الملقاة على عاتقه لا ينعزل عن الحياة والأحياء حتى في أوقات الهزيمة والضعف. ففي مثل هذه الأحوال يتجه شأن كثير من القوى الفاعلة في الأمة إلى البحث عن الذات ولملمة الشتات، قصد ترميم ما تصدّع بسبب الجهل والغفلة والنسيان ووقوع الإنسان فريسة الغرور والأهواء التي تحجب عنه نور الحقيقة وتعطل قواه العاقلة وتلهب غرائزه الدنيا، وتنسج على بصيرته غشاوة صفيقة من الضلال، فإذا هو ثَمِلٌ وفي سكرة عميقة عما يجري حوله، فلا يستفيق من سباته الطويل إلّا على بقايا أمة في النزع الأخير، ذهبت عزَّتها وهيبتها وقوتها ضحية حماقته وتنكره للفطرة التي فطره الله عليها.

إن الأديب الرسالي إن جاز لنا هذا الوصف، هو صاحب القلب النابض والضمير الحي الذي لا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، مهما بلغ وضع أمته من

التردي، فهو يسعى المرة تلو المرة إلى أن يجدد الثقة في النفوس، ويغير ما بها من ضعف قوة، لتُقبل على تغيير واقعها وتصحيح أحوالها، بالعودة إلى الإتصال بمصدر قوتها الأول الذي تراخت أيديها عنه، فلحقها ما لحقها من تفسخ وفساد نخرا كيانها نخراً شديداً ما نزال إلى اليوم نعاني من آثاره العميقة ومن جراحه الغائرة.

والملتقى السنوي للفكر الإسلامي الذي اختارته الجزائرة بعد سنوات قليلة من استقلالها أداة لإعادة البناء وتصحيح المسار بما يقدم فيه من بحوث جادّة يعدّها مفكرون من أبناء هذه الأمة، وباحثون عالميون من أمم أخرى في مختلف القضايا التي أرّقت العالم الإسلامي وما زالت تؤرقه في طريق نهضته من كبوته وتطلعه إلى غدٍ مشرق يستعيد فيه دوره الفاعل في التاريخ بعد غياب طويل عن مسرح الأحداث. لم يكن القيِّمون عليه ـ أعني الملتقى ـ في غفلة عن الدور الإيجابي الذي يمكن أن يؤديَّه الأديب الملتزم بقضايا أمتنا الإسلامية، في سبيل تحقيق هذه الغاية النبيلة التي هي الهَمُّ الأكبر الذي يشغل المسلمين الصادقين في جميع أرجاء المعمورة. لذلك لم يكن من قبيل الانحراف عن الخط الذي رسمته هذه الملتقيات لنفسها أن تفتح صدرها للشعراء، ليعبروا عن انشغالات هذه الأمة وهمومها وتطلعاتها، ولينفضوا غبار السنين عن ماضيها المجيد، ليكون صُوىً للأجيال المسلمة الفتية الساعية بقلوب يغمرها الإيمان لبعث الحياة والقوة في هذا الجسد الذي أجهده التيه في مجاهل الضلال، وأرهقه تنكبه السبيل التي ارتضاها الرحمن لعباده منهجاً في الحياة

وهذا الشعر، على الرغم من ارتباطه بهذه المناسبة السنوية العزيزة. فإنه كثيراً ما ارتقى عن شعر المناسبات بصورته المعهودة، فجاء نابضاً بالحياة وبحرارة الإيمان بمستقبل الأمة الإسلامية المرهون بعودتها إلى النهل بوعي من المشرب العذب الذي ارتوى منه الرعيل الأول من أبنائها والتمسك بما تمسكوا به من شرائع جنبتهم الزيغ والزلل، وكانت لهم مَعْلَماً ومناراً نحو الأهداف العظيمة التي رسمها لهم المولى عزّ وجلّ في كتابه العزيز، ، فهذا الشاعر اليمني عبد الله الشماحي رحمه الله في الملتقى الذي احتضنته مدينة بجاية سنة 1974، يتعمق وجدان أمتنا الباحثة عن نفسها، الرانية بشغف شديد إلى مستقبلها الذي تريده زاهراً مضيئاً فيكشف عن إحساسها العميق بثقل غطرسة اليهود وتجبرهم، ويميط اللثام عن شعورها بأن الخلاص من

هذا الأخطبوط لن يصبح حقيقة واقعة إلّا برصّ الصفوف ووحدة الكلمة في ظلّ الإسلام مصدر قوتها وعزتها وكرامتها، يقول في هذا الموضوع[1] :

عـدنـا وعـادالملتقى — في المنهج البـالي يسير
هي فكـرة من هـا هنـا — فتح الـزنـاد لها نفير
فـإذا بـأمـة أحمـد — في نشوة الأمـل الكبير
متطلعين ـ لوحـدة — في ظـل توحيـد القديـر
في ظـل شرعـة أحمـد — للعـدل مشرعـه النمير
عـدنـاوعـادوا وأرجـاؤنـا — أقوى وأوثق بـالمصير
فلقـد جـدعنـا اليهود — الكبريـاء مـع الغـرور
وستنتهي أطماعهـم — إن قـابـل شرع البشير
عـدنـا شريعـة أحمـد — لأداء واجبنـا الخطير
روح العقيـدة دافـع — ولكـل جلب تستشير
بـالأمس كـانت ومضـة — واليوم شعـاع منير

وقد كانت الوحدة على أساس عقيدي ديني هاجساً شغل أكثر من شاعر من شعراء ملتقيات الفكر الإسلامي، كالشاعر المغربي علي بن أحمد الريسوني الذي يرى في هذه اللقاءات الفكرية خير ما يعبد السُبُل لتلاحم المسلمين وتآخيهم وتعميق فهمهم للدين الإسلامي، وكالشاعر الجزائري محمد عاشور الذي وقف عند أثر هذه المناسبة ـ التي يلتقي فيها مفكرو الإسلام ـ في تنوير الفكر وتوضيح الرؤية وتفويت الفرصة على أعداء الدين يرومون إبقاء المسلمين ممزقين مشتتين، ليسهل إذلالهم واستغلالهم، ونيل الأغراض منهم.

أما الشاعر صالح باجو ـ من الجزائر أيضا ـ فنلمس لديه هاجس الوحدة من خلال المنهج الذي رسمه لاستعادة فلسطين السليبة وتطهيرها من رجس اليهود، فهو يرى أن السبيل إلى هذه الأمنية الغالية التي تشرئب إليها أعناق المسلمين المخلصين، هي العودة إلى دستور ربِّ العالمين؛ أي باختيار الإسلام منهج سلوك وعمل، يقول مخاطباً الشباب العربي ليتأهَّب لتقديم دمائه الزكية مهراً لتحرير فلسطين من مغتصبيها[2] :

شبـــاب العـــروبـــة إنّـــا جميعـــا
على موعـــد بـــرُبـــا القـــدس
نطهـــــره من دنيـــــا اليهود
ونغسلـــــه بـــالـــــدم الأنفس
فيعلوا لوانـــا بحيفـــا ويـــافـــا
ونـــرفـــل في بهجـــة العـــرس
نـــبني فـــلســـطين مجداً على
أساس تلبـــــد هنـــــا درسي
سينصرنـــــا الله حتمـــــاً إذا
رجعنـــا لـــدستوره الأقـــدس

فالبيت الأخير في هذه المجموعة يبيِّن مدى وعي الشاعر بأن قوة شوكة المسلمين لن تتحقق إلا بوحدتهم التي تستمد فلسفتها من شرع الله تبارك وتعالى.

أما الشاعر اللبناني الدكتور سليم حيدر فاختار هجرة الرسول ﷺ ومنهجه في توحيد المسلمين على كلمة الحق لمجابهة الظلم والضلال، رمزاً للنهج الذي ينبغي أن تسلكه أمتنا في طريق انعتاقها وإعداد نفسها لرفع المظالم الواقعة عليها، ومحاربة الطغاة المتكالبين عليها، فاسمعه يقول[3]:

يا هجرة الرسول، يا حقيقة مزدحمة
تنداح في الأبعاد كالنجوى بقلب العتمة
جودي وعودي كل عام عودة مقتحمة
لعل في التكرار إذكاء لروح الكلمة

ثم يقول موظفاً شخصية أبي لهب رمزاً للكفر وحب الاعتداء والتسلط وجميع أشكال الظلم التي ينبغي أن نحاربها بشدة ونزيل آثارها من الوجود:

فحطموا أبا لهب
حيث وجدتم رأسه
حيث وجدتم نفسه

في كل عصر ، كل مصر، كل أمر، حطموا أبا لهب
وجددوا دم العرب
وجددوا للدين والإيمان والجهاد معنى الكلمة
فالمسلم الأصيل من ينقذ من أيدي الأعداء حرمه

إن هذا الذي يدعو إليه الشاعر لا يتحقق بفرقة الأمة، بل باجتماع كلمتها على أساس المنهج الرباني الذي أومأ إليه في السطرين الأخيرين من أبياته المتقدمة، وهو المنهج الذي اهتدى به رسول الله ﷺ في جمع كلمة المسلمين على الحق وتثبيت قلوبهم على الإيمان الصحيح، فإذا هم في فترة وجيزة أمة قوية متلاحمة الصف عزيزة الجانب.

أما الشاعر عاطف يونس، فإن نداءاته إلى الوحدة بُحَّت لها حنجرته دون أن يجد آذاناً صاغية تلبي هذا النداء، فظلّت الأمة مشتتة بعيدة عن التآخي الذي يبعث مجدها الغابر، ويرفع عنها الذل الذي لحقها بسبب التمزق الذي ضرب أطنابه في كل أرجائها يقول[4] :

غنيتها وحدة كبرى تلملمها
وتبعث المجد حيّاً في نواحيها
كم ذا عزفت وكم لاطفتها عبثاً
وكم صرخت عليها كي أوعيها
وكم لقيت عناء في محبتها
وكم رفضت بديلاً عن تآخيها
وقد رجعت كأني دون حنجرة
وشيبتني وما شابت لياليها

ولم يفت عاطف يونس في هذه القصيدة التي ألقاها في الملتقى الذي انعقد بالجزائر (العاصمة) سنة 1980 أن يضع يده على مكمن الداء ليبرز أسباب المحن التي تعاني منها الأمة وعلى رأسها محنة الفرقة والتمزق، فقد حمَّل قادتها المسؤولية الأولى فيما آلت إليه أحوالها من تردٍّ وتفسخٍ ؛ فهم الذين جرَّعوها كأس الذل صرفاً وكرّسوا فيها

السلبية وأجبروها على طأطأة الرأس، وأجهضوا كل روح ثورية فيها، فبرزت في ربوعها صور متناقضة من الحياة؛ تناقض بين ماضيها المجيد وحاضرها المتعفن، وتناقض آخر في حاضرها نفسه، فالفقر قد ضرب أطنابه في كثير من نواحيها على الرغم من الخيرات الكثيرة التي أنعم بها الله على هذه الأمة، وليس من سبب في ذلك سوى غياب الوحدة التي لا حياة لأمة الإسلام ما ظل نجمها آفلاً، فقد أصبح كل قطر يعيش حياته بمنطق خاص، وبنظرة ضيقة بضيق أفق تفكير ساسته، بل إن أنانية هؤلاء الساسة المفرطة انتهت بهم إلى إخراج رعاياهم جملة من حدود تفكيرهم، فاغتصبوا حقوقهم وآثروا بها أنفسهم واتّخذوا سلطتهم مطية لحماية مصالحهم. أما مصير الأمة فأضحى لديهم في خبر (كان):

يا حاوي العيس لي في العيس تجربة
أضحت عمراً طويلاً في تلقيها
كريمة الأصل في أحوالها حول
وللرعاة نصيب في تجافيها
هم علموها حروف النصب فانتصبت
كل الحقائق وانداحت معانيها
وجَرَّعوها كؤوس الذل مترعة
فأدمنتها وهامت في تساقيها
وهرب الليل من تاريخها قرأ
يا ليل حاضرها يا ضوء ماضيها
كانت تتيه على الدنيا بطلعتها
واليوم تمعن في صحرائها تيها
يعمم الفقر فيها وهي متخمة
والخير فيها ولكن.. أين من فيها
صار الرغيف إلهاً في مجاعتها
ما أكفر الجوع تقديساً وتأليها
غنى وفقر وبترول ومسكنة
لا تعجبين فحاميها حراميها

لكن كيف السبيل إلى معالجة هذه الأدواء واستخلاص الأمة من قمامة المآسي الغارقة فيها من رأسها إلى أخمصي قدميها؟ يجيبنا عاطف يونس على سؤالنا هذا بقوله:

نـــاشدتك الله لا تعـــزف على وتـــري
واعـــزف على النّـــار عَـــلَّ الكي يشفيهـــا
وكـن جحيمـــــــــاً إذا استنهضت همتها
وكـن رحيمــــاً إذا مـــا رحت تكـويها

ثم يضيف في خاتمة القصيدة:

الله أكبر لـو حيت بســـاحتنـــا
على الجهـــــاد ملايين تلبيهـــــا
الله أكبر في الجلي مجربــــــــــة
فـــاعلنوهـــا وكفّوا عن تنـــاسيها

فتجديد الأمة والعودة بها إلى سيرتها الأولى، يوم كانت الأضواء التي تبدد الظلام المخيم على البشرية ترسل من أعماقها، هذا التجديد كما يرى عاطف يونس هو الآخر يجب أن يكون عبر وحدة تكون العقيدة الصحيحة عصبها المحرك.

وإنه ليطول بنا الكلام لو أردنا أن نتتبع قضية الوحدة الإسلامية بحسبها منهجاً لتغيير أحوال الأمة وطريقاً إلى النصر في جميع الأشعار التي أنشدت في ملتقيات الفكر الإسلامي إلى اليوم(5)، فهذه القضية وحدها يمكن أن تشكل بحثاً قائماً برأسه في تقديرنا.

والمسألة الأخرى التي عالجها شعراء الملتقيات في أثناء قصائدهم مسهبين حيناً وموجزين حيناً آخر، هي قضية تحرير فلسطين. فقد رأينا في النماذج المتقدمة التي أوردناها للشماحي ولصالح باجو اهتماماً بها لافتاً للنظر، والطريق إليها كما لمسناه عندهما هو نبذ المسلمين الفرقة والخلاف والعمل ـ خلافاً لذلك ـ على التوحد على أساسٍ عقيدي.

ونفس هذا التصور لاستعادة فلسطين المغتصبة نجده عند الشاعر محمد غزيل (من الجزائر) في قصيدته التي ألقاها في ملتقى ورجلان (ورقلة) سنة 1977، فقد قال متفائلاً بنهوض المسلمين لانتزاع القدس الشريف من أيدي الصهاينة الملاعين وكلمة الله أكبر تدوّي وتبث الرعب في نفوس الأعادي[6]:

يـا قـدس لا تيـأسي فـالمسلمون هنـا
مصممون على دحــر الصهــاينـا
الله أكبر قـولوهـــا مجلجلــة
دين الهدى بلسم يشفي المصــابينـا
بــه يعم السلام الحق كـــل الـــدنى
ويصبح النـــاس إخوانـــاً محبينـا

أما الشاعر أحمد شقار الثعالبي (الجزائر) فيذكّر بفضل الرجوع إلى الدين في قوة المسلمين واجتماع كلمتهم على الجهاد لدفع الحيف والظلم على الأمة؛ ليعود الأمن إلى ربوعها وتلقي عنها لباس الخزي والعار وتهبّ لتلبية نداءات المسجد الأقصى الذي ما يزال يئن ويحشرج تحت أقدام الطغاة الصهاينة الذين ألحقوا به ألواناً من الذل والمهانة[7]:

فــاستعينوا بــالله في نشر عــز
نـــابـــع من منـــابـــع القـــرآن
والـــزموا شرعـــة الجهـــاد ففيهـــا
مخرج الحر مـــن مضـــيـــق الهوان
لا يـــزال الأقصى يـــردد صوتـــا
مستجيراً من ظلم هـــذا الـــزمـــان
سامـــه الهوان كـــل لقيط
وهو مجلى الآيـــات للعـــدنـــاني
مـــا تســاوي الحيــاة إن غيض نبــع
لسمو روحـــه وحنـــان

ولعل الشاعر الذي أفسح لهذه القضية مجالاً واسعاً في شعره الذي ألقاه في هذه المناسبة هو الشاعر الأردني يوسف العظم الذي بدا التحامه بها شديداً، فقد أفرد للقدس قصيدة خاصة[٨] صوّرها فيها وضّاءة منيرة مشرقة، قبل أن يخيم عليها ليل الاحتلال، ومظلمة متجهمة منذ أن حلّ الغاصبون بأفيائها، فألبسوها بعد العزّ ثوب الخزي والمهانة وسلّطوا على أهلها أشد العذاب، وأراقوا دماءهم ظلماً وبغياً ولم تأخذهم الرأفة حتى في الأطفال، فمزقوهم بلا رحمة وشرّدوهم وحرّموهم أحلام الطفولة، غير أن هذا الليل الطويل الذي أناخ على القدس وأبطأ انكشاف صبحه، لم يستطع أن يفقد الشاعر الأمل في استعادة هذه الأرض الطاهرة من أيدي المعتدين، بل إنه بعودته بين الحين والحين إلى التحدث ـ في هذه القصيدة ـ عن خيرات القدس وطيب الحياة بها وعن ذكرياته الجميلة بين ربوعها قبل اغتصابها، يسعى إلى أن يُبقي المُهَج بها عالقة وشعلة الأمل في افتكاكها متقدة، فأنصت إليه تسمعه يقول[٩]:

يـــا درّة في جيـــد تـــاريخنـــا
رُبـــاك من كـــلِّ الـــرُّبى ألطفُ
كـــم قـــد مشت أكبـــادنـــا فوقهـــا
من كـــل روضٍ زهـــرة تقطف
وكـــم سقينـــا تـــربها أنفسنـــا
أنقى من اليـــاقوت بـــل أشرف

وبعد هذه الذكريات الحبيبة إلى نفسه والتي ملكت عليه روحه ووجدانه يقول مبشراً بانبلاج الصبح في غد قد لا يكون بعيداً:

يـــا قـــدس مهما بـــاعـــدوابيننـــا
ففي غـــدٍ جيش الهدى يـــزحف
كتـــائب الإيمان قـــد بـــايعت
لا فـــاسق فيهـــا ولا مترف

إن استعادة فلسطين مرهونة عند العظم هو الآخر بالرجوع إلى الإسلام والجهاد تحت لوائه، لذلك ينعى على العرب ابتعادهم عن نهجه القويم في الحياة وإغراق أنفسهم في اللهو والغناء والعربدة، حتى تعاموا عن النور وتلهُّوا عن الحق واستسلموا لهواهم وغرائزهم، يقول في قصيدته التي وسمها بـ (خدريهم يا كوكب الشرق)[10]:

فـــدمـــاء الأحبـــاب في كـــل بيت
تتنـــــــزى وتبعث الآلامـــــــا
وجـــراح الأقصى جـــراح الثكـــالى
ودموع الأقصى دموع اليتـــــــامى
لا تغني الخيـــام يـــا كوكب الشر
ق وتسقي من راحتيـــــه المرامـــا
ففلسطين لا تـــريـــد سكـــارى
ورُبى القـــدس لا تحب النيـــامـــا
كوكب الشرق ضـــاع قومي لمّـــا
تـــاه في حبّك القطيـــع وهـــامـــا
قـــد أطـــاعوا الهوى فضلت دروب
سلكوهـــا وقـــد أبـــاحوا الحرامـــا

وقد تناول هذا الشعر قضايا خطيرة أخرى كقضية الاستلاب الحضاري التي قتلت الهمة في النفوس وأضعفت عزائم الشباب ووأدت فيهم روح الشهامة والعزة فانسلخوا عن أصالتهم، وأضاعوا قيم الإسلام ومثله ووقعوا في التقليد الأعمى للغرب في كل ما هو مخنث منحط، فحادوا عن النهج القويم الذي لا حياة لأمتنا إلا بالتمسك به، يقول السيد بن إبراهيم باجو في قصيدته التي أنشدها في ملتقى تلمسان سنة (1975)[11]:

أيها الملتقى إليك اتجهنـــــــــا
نـــأمـــل الانعتـــاق من الأصفـــادِ

من قيود ثقيلة أرهقتنا
وسقتنا مرارة الأنكاد
من قيودالتقليد(للموضة) الخر
قاء جرياً وراء كل مناد
كل عاوٍ وناعق بأوروبا
وأمريكا أو راقصٍ أو شاد
أصبحوا والأسى يحز الحنايا
لشباب الإسلام أفضل هاد
كم طبول لهؤلاء ومرايا
عاكسات لهم بأرض بلادي
أيها الملتقى هل لك أن تر
جع بالنشء للهدى والسداد؟

وفي نفس القصيدة يتوجه مرة أخرى إلى الملتقى، وهو في الحقيقة يتوجه إلى الضمائر الحيّة في الأمة كلها، لتعود إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتستوحي منهما منهجاً للحياة، وتنبذ وراء ظهرها ما عداهما مما يفد عليها من وراء البحر فيكون لها شراً مستطيراً:

أيها الملتقى ألا فارسلوها
صرخات دوية في عناد
أرجعوا للكتاب والسنة السمـ
ـحاء نهج النبيء والأمجاد
وانبذوا المسخ والتفرنج نبذاً
في لهيب يحيله للرماد
ندعي أننا على العهد، كلّا
إنما العهد حفظنا للمبادي

أما الشاعر صالح باجو الذي اهتم بهذه القضية أيضاً، فآلمه الفهم الخاطئ

للحرية والتقدم الذي أوقعنا مرة أخرى في شرك الاستعمار. فإذا هو معبودنا الذي نصبنا له بين أضلعنا تمثالاً نصلي إليه، فقد حزّ ذلك في نفس الشاعر، فراح يوضح للشباب المفهوم الصحيح للأصالة التي تحفظ له كرامته وشرفه، وتقيه شر الذوبان في الغير، وذلك بالتعلق بالقيم العليا التي أنعم الله بها عليه والتشبع بها، وليس معنى ذلك أن يُقبر نفسه في الماضي ويغطي بصره عما يجري حوله ويترك زمام المبادرة لغيره، بل من الأصالة ـ بعد التحصن بمبادئ الإسلام وقيمه ـ أن يقتحم الحياة الحديثة ويخوض في علومها بحثاً عن الحقيقة التي تعود عليه بالخير وتزيده قرباً من الله عزّ وجلّ. يقول بعد أن أكّد الإنية الإسلامية لأصالتنا[12]:

وليس الأصالة أن نختبئ
وراء السوار وتحت الدثار
ولكنها في اقتحام الحياة
وخوض العلوم لدى المختبر
نقود الصواريخ والطائرات
ونعلو هامات السهى والقمر
فنلمس لله في الملكوت
وفي الكائنات جليل الأثر
فنعبده ونصلي له
ونوصل بين السماء والبشر
فنجمع دنيا ودينا وكفا قويا
وعقلاً غزير الفكر

إن المقام لا يتسع في الحقيقة لحصر كل القضايا التي تناولها شعر الملتقيات والتمثيل لها، كاتجاه بعض الشعراء إلى الإشادة بالدور التاريخي والحضاري للمدن التي احتضنت هذه اللقاءات، والخروج أحياناً إلى وصف مظاهر جمالها الطبيعي، وما إلى ذلك، كما أنه لا يُمَكِّن من الوقوف عند كل قصيدة على حدة، ولا أن نورد شعراً لكل من فجرت هذه المناسبة ينابيع الشعر في نفوسهم، فاقتصارنا على ما قدّمناه من

نماذج لا يعني أننا أخترنا أجود ما توفر بين أيدينا من هذا الشعر، وأن الذين لم نتحدث عنهم كانوا بكاء مفحمين.

يبقى بعد هذا أن نطرح على أنفسنا سؤالاً مؤداه: هل استطاع هذا الشعر أن يرقى من الناحية الفنية إلى مستوى الشعر الحق؟

إذا كنا لا ننفي أن بعض القصائد التي أُلقيت في هذه المناسبة لم تخل من الضعف الفني، ولم يستطع أصحابها أن يكونوا أكثر من ناظمين، فجاءت تجاربهم فجّة لا تكاد تستثير في نفوسنا الانفعال ولا أن تدمجنا إدماجاً كليّاً في جوِّها، فإن عدداً غير قليل من القصائد التي ارتبطت تجاربها بهذا الحدث السنوي لم تخل من الصدق الشعوري ومن النضج الفني لغة وأفكاراً وأخيلة، فلا تحسَّ وأنت تقرأها أن صاحبها يتعمّل ويتكلف التعبير عن شيء خارج عن ذاته لم يعايشه بكامل وجدانه وكيانه، بل تشعر أن الشاعر وهو يعالج القضايا التي ألمعنا إليها وكأنه يقُدُّ لك قطعة من روحه ويسقيك من دمه ويقدم لك ذوب كبده، كل ذلك بلغة فنية راقية وأخيلة رحيبة امتزج فيها ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها امتزاجاً موفقاً، وبإيقاع موسيقي يُلغي الحواجز بين ذاتك وذات الشاعر، فلا تملك إلا أن تسير في ركبه إلى آخر المطاف دون أن تكون لك سلطة الانفكاك من إسار ما تسمع أو تقرأ، وقد توفرت هذه الصفات في أكثر من نموذج كقصيدة الشاعر الأردني يوسف العظم التي أوردنا أبياتا منها، وقصيدة الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري التي وسمها بـ «الأمة العربية تحت راية الإسلام» واستهلها بقوله[13]:

ردي «يـــا خيـول الله» منهلك العـــذبـــا
ويـا شرق عـد للغـرب فـاقتحـم الغربا

وميمية الشاعر العراقي وليد الأعظمي التي منها[14]:

مـــا على الشـــاكي إذا ضجَّ ولامـــا
يستثير العـــزم للتـــأثـــر انتقـــامـــا
مـــا على المظلوم إن ضـــاقت بـــه
نفســـه فـــاشتـــد كـــالنـــار اضطـــرامـــا

مـــا على المأسور قـــد نـــاء بـــه
قيـــده أن هَبَّ يحتـــاج الظغـــامـــا
مـــا على المخنوق إن كفّ يـــــداً
خنقتـــه فلواهـــا واستقـــامـــا
أيها القوم أعيروا سمعكـــــــــم
إنني أقـــذف نـــاراً لا كلامـــا

ولم تعدم قصيدة مصطفى الغماري (يا قدس) التي ألقاها في الملتقى الرابع عشر الذي احتضنته الجزائر العاصمة سنة 1980، كثيراً من الخصائص التي ألمحنا إليها. وإن قارئ هذه القصيدة ليحار في أي مقاطعها يكون أولى بالاستشهاد به فيما نحن بصدده، فقد كان صاحبها فناناً حتى في تقريريته، فاسمعه وهو يقول في المقطع الأخير من هذه القصيدة[15]:

يـــا قـــدس والـــراكضون اليوم زوبعـــة
من الظنون تلوك الصمت أواهـــــا
تسكعت ودموع الـــــزيف دمعتهـــا
وحشرجـــات الـــزمـــان المرمـــأواهـــا
في رعشـــة «الأوف»ـ كـــم تختـــار أخيلـــة
تصحو ويغفو على حلم نـــدامـــاهـــا
القـــاتلون رموز الفتح صـــاهلـــة
والصـــالبون على الايـــام ذكـــراهـــا
نسوا فواحـــل في أيـــامهـــا ارتسموا
ولم يجوبوا حـــدود الكـــرب لولاهـــا؟
بـــاسم التقـــدم كـــم شلوا تقـــدمهـــا
بـــاسم العـــروبـــة كـــم غـــالوا محيـــاهـــا
هيـــا إلى الله قبـــل القـــدس يـــا وطني
لا ينصر القـــــدس من لا ينصر الله.

ومن الحديث المكرور أن نشير إلى القيمـــة الفنيـــة لقصـــائـــد مفـــدي

زكريا التي كان يلقيها في ملتقيات الفكر الإسلامي، ومن الأهمية بمكان أن نسجل في هذا المقام شهادة الشاعر اليمني عبد الله الشماحي فيما سمعه من شعر المرحوم مفدي زكريا في ملتقى بجاية عام 1974، فقد قال معبراً عن إعجابه بما هزّ وجدانه: «لقد وقف شاعر الثورة مجلياً ومصلياً لم يدع لغيره أن يتعقبه كما قال في قصيدته إنه لا يدع مجالاً لغيره للتعقيب، أو أن يشعر. وليست كلمته التي ألقاها بدعوى بلا دليل، فقصيدته التي استواحاها من هذه الربوة العامرة بمواهب الطبيعة حقيقة، إنها رائعة وما عليه أن يختال أو أن ينظر إلى المتنبي وهو في أثره يتعثر، ذلك الشاعر العظيم، المتنبي اليمني الذي يقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وهكذا نسمع بعد ألف عام على الأدب العربي وعلى الشعر العربي صوتاً من جديد ينبعث من أين؟ ينبعث من الجزائر منبع البطولات، من الجزائر منبع الرجال، من الجزائر منبع الأبطال، من الجزائر منبع الشعر الصحيح المجلجل»[16].

إن هذا الذي قاله المرحوم الشماحي ليس مجاملة ولا مداهنة، بل هو حقيقة لا ينكرها إلا جاحد، فإلياذته أو ألفيته التي أنشد القسم الأكبر منها في الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة 1972 تستحق أكثر مما قاله الشاعر اليمني عبد الله الشماحي، رغم بعض الآراء التي تصفها بأنها نظم وسرد تقريري ـ لا فنّ فيه ـ لأحداث التاريخ. إن مفدي زكريا في الحقيقة لم يكن في عمله هذا مؤرخاً إنما كان شاعراً، استغل التاريخ ليصنع منه ملحمة للجزائر، لذلك ليس كثيراً أن نقول: إنه دخل بهذا الأثر الفذ التاريخ من بابه الواسع مثلما دخله أولاً بشعره في الثورة، لهذا وإنصافاً للشاعر وتوكيداً للسمات الفنية التي توفرت في قسم كبير من شعر الملتقيات نورد مقطعاً من هذه الإلياذة لنرى بأم أعيننا ما تشع به هذه الملحمة من قوة إيمان الشاعر بأمته وأمجادها ومخ موهبة شعرية فذة مكنته من أن يوفر لألفيته من عناصر الفن ما يرقى بها إلى مصاف الآثار الأدبية الخالدة، فأعره أذنك أخي القارئ وهو يربط ربطاً موفقاً بين نوفمبر وبدر في نهاية هذه الأبيات التي اخترناها من إلياذة الجزائر[17]:

تـــــأذّن ربك ليلـــــة قـــــدرا
وألقى الستـــــار على ألف شهـــــر
وقـــال لـــه الشعب: أمـــرك ربي!
وقـــال لـــه الـــرب: أمـــرك أمـــري
ودان القصـــاص فـــرنســـا العجوز
بما اجترحت من خـــــداع ومكـــــر
ولعلـــع صوت الـــرصـــاص يـــدوي
فعـــاف اليراع خـــرافـــات حبر!!
وتـــــأبى المدافـــــع صوغ الكلا
م، إذ لم يكن من شواطٍ وجمـــــر!
وتـــأبى القنـــابـــل طبـــع الحرو
ف إذا لم تكن من سبـــائك حمـــر!
وتأبى الصفائح نشر الصحائف ما لم تكن بالقرارات تسري!
ويأبى الحديد استماع الحديث إذا لم يكن من روائع شعري!
نوفمبر غيّرت مجرى الحياة وكنت - نوفمبر - مطلع فجر!
وذكـــرتنـــا في الجزائـــر بـــدرا
فقمنـــا نضـــاهي صحـــابـــة بـــدر

لا أحيلك على ما في هذه الأبيات من قوة السبك ومن لغة ثائرة كثورة الشاعر، ولا على ما قذفت به أحناؤه من براكين وهو يستعيد ذكريات ثورة وهب لها قلبه وتلوّن بلونها دمه، إنما أحيلك فحسب على هذا المشهد الغاضب الثائر الذي استغل الشاعر في نسجه قوة الإيحاء في الكلمات التي أضحت صوراً قائمة بذاتها تضافر بعضها مع بعض في إنجاز هذا المشهد الذي اختلط فيه دوي المدافع والقنابل مع صوت الرصاص المتلاحق فاضفى عليه إيقاعاً متميزاً، ونشر فيه ألواناً تتراوح بين الحمرة القانية والصفرة النارية المتوهجة، والرمادي الداكن الذي يطغى على المشهد كله بفعل ما تثير القنابل من غبار وما ترسله المدافع من دخان، ويتخلل ذلك كله خيط من الضوء رفيع هو الغد المشرق الذي بشر به نوفمبر.

هذه القدرة التصويرية التي لا نحس فيها بأي تَعَمُّل أو تصنُّع أو بشيء مما يجافي الطبع، هي إحدى العلائم على القيمة الفنية لشعر مفدي.

وهناك قصائد أخرى غير التي ألمحنا إليها توفرت على خصائص الشعر الحق شكلاً ومحتوى[18]، فكانت ذرراً من الفن والجمال يحق للشعر العربي أن يفخر بها ويضمها إلى رصيد تجاربه الملتزمة بالخط الإسلامي.

الهوامش:

(1) محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي (1974) المجلد الثالث ص. 1587.

(2) نفس المرجع والصفحة.

(3) محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي (1975) المجلد الرابع ص.ص1604ـ1610.

(4) راجع القصيدة في: صور من الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي ص.ص415ـ417.

(15) راجع مثلاً قصيدة عبد الله الشماحي (الشرع والوحدة) في: الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي (1973) المجلد الخامس ص.ص1896ـ1898 وقصيدة الشاعر الفلسطيني الدكتور وصفي أبو مغلي (أين المنطق السليم؟) في نفس المرجع ص.ص1893ـ1895، وقصيدة الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري (الأمة العربية تحت لواء الإسلام) في: محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي (1975) المجلد الرابع ص.ص1611ـ1613.

(6) القصيدة موجودة في: محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي (1974) المجلد الثالث.

(7) القصيدة موجودة في: محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي (1975) المجلد الرابع ص.ص1599ـ1660.

(8) وكذلك فعل الشاعر الجزائري مصطفى الغماري راجع: صور من الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي ص.ص427ـ428.

(9) القصيدة كاملة في: محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي (1975) المجلد الرابع ص.ص1614ـ1617.

(10) القصيدة كاملة في المرجع السابق ص.ص1618ـ1620.

(11) راجع القصيدة في المرجع السابق ص.ص 1634ـ1637.

(12) القصيدة في: محاضرات ومناقشات الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي (1977) المجلد الخامس ص 75 وما بعدها.

(13) أنظر القصيدة في محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي (1975) المجلد الرابع ص 1611ـ1613.

(14) المرجع السابق ص.ص 1623ـ1624.

(15) القصيدة التي أشرنا إليها في الإحالة: 9.

(16) محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي (1974) المجلد الثالث ص. 1586.

(17) إلياذة الجزائر طبعة وزارة الشؤون الدينية بالجزائر ص: 69.

(18) نذكر من هذه القصائد على سبيل المثال. قصيدة الشاعرة السورية (مها غريب) التي أنشدتها في الملتقى الرابع عشر بالجزائر سنة 1980. وقصيدة الأستاذ قنعان ألبيسوني التي ألقاها في نفس الملتقى.